كانتْ وكُنَّا، ثُمَّ صَارتْ وَصِرْنَا

كانت انجلترا في حين من الدهر الغافل قد أصبحت بفضل المكر والصبر والمراوغة والبرود والأسطول المركز العصبي في رأس العالم كله. تقول للدولة كوني فتكون، وللحكومة قومي فتقوم، وللأمة اخضعي فتخضع، وللبحار والجزر أطيعي فتطيع، لا يخالف عن أمرها شعب، ولا يدور في غير فلكها كوكب، ولا تغيب من ملكوتها شمس. ملكت عوالم الرومان والهنود والعرب، وهزمت جيوش نابليون وغليوم وهتلر. وسخرت لأمرها أقطاب العلم والعمل والمال فحولوا مجاري الأرزاق في كل بقعة من بقاع الأرض إلى جزيرتها الجديبة فرضيت وغضب الخالق، ونعمت وشقى الخلق !.

وكنا كما كان غيرنا مدفوعين بالكره إلى مدارها المظلم، مجروفين بالقوة في تيارها البارد، لا ندرك لذاتنا وجودًا مستقلا، ولا نعرف لحياتنا غاية معينة. وكان الذين دفعونا إلى ذلك المدار، وألقونا في ذلك التيار، رجالاً يحترفون السياسة أو يتجرون بالدين، ركبهم شيطان الاستعمار فباعنا بعضهم له بيع السماح، وزوجه بعضهم من مصر زواج الأبد!.

كان عرشنا في القاهرة ومَلكنا في لندن، وحكومتنا في ميدان لاظوغلي ورئيسنا في دوننج ستريت[1]. فلا وزارة تسقط أو تقوم، ولا قانون يصدر أو ينفذ، ولا أمر يبرم أو ينقض، ولا موظف يعين أو يقال، إلا إذا وافق قصر الدوبارة[2]!.

وما ننسى لا ننسى تأليف إحدى الوزارات المصرية بمرسوم من الدبابات البريطانية استخذى له الملك الضخم ولم يعارض، واستكانت المعارضة ولم تعترض، واكتأب له الشعب ولم يغضب! وأساءت هذه الوزارة نفسها الحكم وأفرطت في الإساءة، حتى ضجت الصحافة وسخطت الأمة واحتجت الأحزاب وقدموا باحتجاجهم عريضة إلى القصر " التمسوا " في ختامها قبول الولاء وإقالة الوزارة! فتنسم الشعب نسيم الأمل،

(1) الشارع الذي تقيم فيه رئاسة الحكومة البريطانية في لندن.

(2) قصر السفارة البريطانية في القاهرة.

وتوقعت الأحزاب نجاح المسعى، واشرأبت أعناق المستوزرين إلى الكراسي الخالية، وجرت أقلام الديوان الملكي بالمراسيم الجديدة، وإذا ببرقية من الوزير الإنجليزي إيدن تهبط على السفير البريطاني كيلرن تقول في عبارة موجزة آمرة: نو تشنج: " لا تغيير " فقرت فورة من فار، وخاب رجاء من رجا، وتصاغرت كبرياء من استكبر، وانسابت "جمعية المنتفعين" من حزب الوزارة في شوارع القاهرة يهتفون بعبارة البرقية الإنجليزية نو تشنج ! نو تشنج !.

كذلك كانت انجلترا وكانت مصر في الزمن الذي غفا فيه الشرق وزهق الحق وفجر الاستعمار وطغت القوة.

ثم فعلت الشيخوخة بانجلترا فعل الخريف بالشجرة العتيقة، زعزع جذعها النخِر، وأسقط ورقها الذابل. وهبت عليها العاصفة من شطئان النيل وكثبان القناة في يوم 23 يوليو سنة 1952 فهزتها هزة الزلزال فتقلص ظلها في إفريقيا وانقبض نفوذها في آسيا. وكان عقلها قد خرف وصبرها قد وهن وبرودها قد فتر وأسطولها قد بلى فصارت إلى الغروب الذي يعقبه الظلام والبرد واليأس. وكان ليلنا الطويل قد آذن بالإصباح، وكان الشروق في هذه المرة قد بزغ من " عين شمس "[1] وكان الأحرار من شباب الجيش هم الذين هتكوا عنه الحجب فشع بالنور والحرارة والهداية والأمل، فهربت الخفافيش التي يعميها الضوء، وبادت الجراثيم التي يقتلها الطهر، ووقفت مصر النقية الفتية لعدوها الكافر بالحق، الفاجر بالباطل، فاقتلعت جذوره السامة من أرضها الطيبة، وأخرجته منها محسورًا مدحورًا كما أخرج الله إبليس من الجنة لم تغن عنه وسوسته ولا أفعاه.

فلما أممنا شركة القناة الفرنسية الإنجليزية أوهمه ضلاله القديم أن الفرصة قد سنحت ليعود إلى فردوسه المفقود، ولكن جون بول قوي الذاكرة، لم ينس هجمات الأسود في الليالي السود على جنوده الضاربين على ضفاف القناة، فاستنصر مريان ويهوذا[2] وهما يتسعران بالحقد الأسود على مصر لوقوفها موقف الذائد الحامي من

(1) المكان الذي اندلعت فيه جنه نار الثورة الناصرية.

(2) مريان فتاة حسناء يجعلها الفرنسيون شعار لهم، ويهوذا علم جنس على اليهود .

عرب الجزائر وفلسطين. وهجم الأعداء الثلاثة هجوم الغدر على سيناء وبورسعيد، وأنساهم خذلان الله أن بورسعيد غير التل الكبير، وأن عبد الناصر غير محمد توفيق، وأن الجيش الذي كان يعد بالألوف وهو أعزل، أصبح يعد بالملايين وهو مدجج، وأن مصر الثورة قد أصبح لها في الميزان الدولي وزن يقام ورأي يرجح، وهي توشك أن تجعل من الأمة العربية والأمم الشرقية كتلة ثالثة لتقتل الاستعمار فتقتل العدوان، وتضمن الحياد فتأمن الحرب.

أراد الأحمق إيدن أن يكون هذا الهجوم الدنيء على مصر، وأراد الله أن يكون على انجلترا نفسها. وقدر الغبي أن تكون النصرة له في أسبوع، وقدر القدر أن تكون عليه في هذه المدة. وخرجت مصر من الحرب وقد أصابت كل شيء، وخرجت منها انجلترا وقد أصيبت في كل شيء: أصابت الحرب مجدها فجعلته حطامًا، وأصابت شرفها فقلبته نذالة. ثم أصابت اقتصادها فجعلته أزمة لا تنفرج، وأصابت حاضرها في الغرب فجعلته ماضيًا لا يعود، وأصابت مستقبلها في الشرق فجعلته وهمًا لا يتحقق. وعاون عبد الناصر قضاء الله في بريطانيا الباغية بدفاع حربي مجيد وهجوم سياسي بارع: دافع بالصبر والصدق والبسالة والاستماتة، وهاجم بالحق والقانون والأمم المتحدة والدول الحرة. وكانت هذه المعركة التي نشبت بين دولتي الاستعمار ومصر أول معركة في تاريخ الإنسان احتشدت فيها أمم الأرض جمعاء بألسنتها وأسلحتها بجانب دولة لم توضع عن عنقها الأغلال إلا منذ أربع سنين لتظاهرها على دولتين من كبريات الدول تعاونتا على العدوان والإثم، وتآمرتا على الأمان والسلم.

وابتلى الله إيدن بالفشل وأتم عليه الخيبة فانسحب من بورسعيد كما انسحب أستاذه تشرشل من دنكرك، ولكن شتان بين انسحاب تم بعد هزيمة، وانسحاب وقع بعد جريمة!.

ثم أخذ يستعرض في خياله فلول جيشه والسفن تجري بهم على أثباج[1] البحر موتى أو جرحى أو مرضى، ويستعيد في ذهنه ما جره على وطنه وقومه من الجوائح والفضائح، وينظر في الوقت نفسه في أمر خصمه الألد عبد الناصر فيراه قد بلغ من توفيق الله إياه أن صار رجل العالم في سنة 1956 وأن مصر قد صارت بقيادته قبلة الأنظار ومهوى الأفئدة ومثابة العروبة، فانساقت قواه وانهارت أعصابه واشتدت أوصابه فانتحر بكتاب الاستقالة الذي قدمه إلى ملكته وهو محزون، فتقبلته وهي مسرورة! وهذه هي المرة الأولى التي تُسقط فيها مصر وزارة انجليزية، بعد أن ظلت انجلترا طول الاحتلال تسقط كل وزارة مصرية !.

وهكذا صار أمر بريطانيا إلى دولة غير عظمى ليس في طوقها وسع ولا في يدها زمام، وصار أمر مصر إلى دولة زعيمة لها في روسيا شأن وفي أمريكا مقام.

(1) قلت: الثَّبَجُ : وَسَطُ الشيء تَجَمَّعَ وبَرَزَ ومنه ثبَج البحر ، وثبج الصدر ، وثبج الظهر ، وثبج الأكمة.